

## مقام الوطن والحرب الوطنية فى الإسلام

فلا عجب، إذن بعد الذى تقدم، أن نرى «الوطن» و«الوطنية» مقامًا عاليًا فى فكر الإسلام وتراث المسلمين . . ذلك أن الذين يقولون «بالسلطة الدينية» و«وحدة السلطتين، الدينية والزمنية»<sup>(١)</sup> يغضون من شأن «التزعة الوطنية» . . بل لقد رأينا منهم من يتحدث عنها كصنم وطاقوت يعبدها الوطنيون فى المجتمع الحديث ويشركونها فى العبادة مع الله<sup>(٢)</sup>! أما الذين يقولون «بالطبيعة المدنية» لسلطة الدولة فى الإسلام، ويرفض الفكر الإسلامى للسلطة الدينية و«الحكم بالحق الإلهى» فإنهم لا يعجبون ولا يتعجبون من إجلال الإسلام وتعظيم فكره السياسى لمقام الوطن والوطنية، وحث أمته وأهله على الاهتمام بهما إلى هذا الحد

---

(١) انظر فى دراسة هذه الأفكار ونقدها كتابينا: (الإسلام وفلسفة الحكم) طبعة بيروت - الثانية - سنة ١٩٧٩م . . و(الإسلام والسلطة الدينية) طبعة بيروت - الثانية - سنة ١٩٨٠م .

(٢) انظر فى دراسة هذه الأفكار ونقدها كتابينا: (الإسلام وفلسفة الحكم) . و(الإسلام والسلطة الدينية) .

الكبير . . فما دامت السلطة ذات «طبيعة مدنية»، فإن صراعاتها - ومنها القتال - لا بد أن تكون «مدنية الطبيعة» فهو قتال سياسى إذن، حتى وإن أطلق عليه، القتال فى سبيل الله . . بل إن جعله فى سبيل الله يصبح شهادة تمجيد وإعظام وتقديس للقتال فى سبيل الوطن والحرب دفاعاً عن حوزة الأوطان! . . وكيف لا . . والله يجعل قتالنا السياسى العادل وحربنا الوطنية المشروعة، ونضالنا المسلح لحماية الوطن وصون استقلاله جهاداً فى سبيله وقتالاً يبتغى به المقاتلون وجهه ورضوانه؟! . .

بل لقد جعل الإسلام، فى قرآنه الكريم، الموقف من «القضية الوطنية» معياراً يحدد للمسلمين من تجوز لهم مودته ومصادقته والبر به، ومن لا يجوز لهم إنزاله منازل الأصدقاء والأوداء، من غير المسلمين . . فنحن هنا نهياً قاطعاً عن أن نصادق أو ننصر أولئك الذين يعتدون على ديارنا، أو يخرجون منها أبناءها المسلمين .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١] .

فالذين يخرجون المسلمين من أرضهم وينتزعونهم من ديارهم ويقتلعونهم من أوطانهم هم أعداء الله، كما هم أعداء لهؤلاء المسلمين

أصحاب «القضية الوطنية» . . بل إن تكافل الأمة الإسلامية ووحدتها العضوية حول المعتقد، ومن ثم حول المنطلقات والمقاصد والغايات، إن هذا التكافل يفرض على كل أبنائها أن يقفوا موقف العداء من أية قوة تخرج أى جماعة مسلمة من وطنها . . والإخراج من الوطن هنا لا يعنى التهجير الاضطراري فحسب، بل يشمل عزل المسلمين عن أن تكون لهم السيادة الفعلية والفعالة فى أوطانهم؛ لأنه إخراج لهم من ديارهم حتى ولو كانوا بأجسادهم فيها يعيشون؟! . . إن أية قوة تصنع ذلك بأية جماعة مسلمة، بل بأى مسلم ولو انفراد، هى عدوة لله؛ لأن الإسلام قد رفع العداء فى «القضية الوطنية» إلى مرتبة العداء لله، كما جعل القتال فى سبيلها قتالاً فى سبيل الله . . والله - سبحانه - قد نهانا أن نصادق أعداءنا فى «الوطنية» فليس لهم عندنا مودة أو موالاة أو نصر بأى حال من الأحوال .

وفى آية أخرى من آيات القرآن الكريم يحدثنا الله - سبحانه - عن من تجوز مصادقته من المخالفين لنا فى الدين؟ وعن من لا تجوز لنا مصادقته من هؤلاء المخالفين؟ . . فإذا نحن مطالبون بالأ نصادق ثلاث فئات . .

(أ) الذين يقاتلوننا فى الدين، بالحيلولة - بواسطة القتال والصراع العنيف - بيننا وبين حرية الدعوة وأمن الدعاة . . أى يقاتلوننا عداء منهم لحرية الضمير والاعتقاد .

(ب) والذين يخرجون المسلمين أو بعضهم من ديارهم، على أى نحو كان هذا الإخراج، تهجيراً بالاضطهاد، أو عزلاً عن امتلاك

خيرات الوطن والتحكم فى مقدراته نتيجة للاحتلال والنهب والاستغلال!..

(ج) والذين يظاهرون - أى يساعدون - مجرد مساعدة على إخراج المسلمين من ديارهم وأوطانهم ، على أى نحو كانت المظاهرة والمساعدة فى القهر الوطنى من هؤلاء لأعداء المسلمين!..

نعم .. يوجز الله - سبحانه وتعالى - أمره تلك ، ويلخص لنا وصاياه هذه فى قوله :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿

[المتحنة : ٨ - ٩].

فللمسلمين - إذن - أن يقيموا علاقات البر والمودة مع مخالفينهم فى الدين إذا هم لم يفتنوهم بالقتال عن دينهم ، ولم يخرجوهم من أرضهم إخراجاً جسدياً أو معنوياً . ولهم أن يقسطوا إلى هؤلاء المخالفين إذا هم لم يصنعوا شيئاً من ذلك . . بل لقد فسر بعض أئمة تفسير القرآن الكريم معنى «القسط» هنا بما هو أكثر من «العدل» ؛ لأن العدل واجب على المسلمين دائماً وأبداً ، مع الموافقين والمخالفين ، الأصدقاء منهم

والأعداء . . واجب «فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل!» . . وقالوا: إن معنى «وتقسطوا إليهم»: «أى تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة!»<sup>(١)</sup>.

إلى هذا الحد تجب المودة ويلزم البر ويتعين القسط للذين لا يتخذون من أوطاننا وقضيتنا الوطنية موقف عدااء . . وفى المقابل ينهانا الله - سبحانه - عن التولى - مجرد التولى - لمن يتخذون موقفاً عدائياً من قضايا الوطنية، مباشرة كان عداؤهم هذا أو بمجرد مظاهرتهم ومناصرتهم لهؤلاء الأعداء!

بل لقد بلغ القرآن الكريم بقضية الوطن وعقيدة الوطنية الذروة عندما جعل الحفاظ على استقلال الوطن والدفاع عن حوزته، بشجاعة أهله واستبسالهم، الأمر الذى يحقق للمواطنين المعنى الحقيقى للحياة! . . وبالمقابل جعل الجبن والفرار والتفريط فى حرية الوطن واستقلاله موتاً لهؤلاء المواطنين الذين فرطوا فى وطنهم وأهملوا مشاعرهم الوطنية . . فهم بفقدانهم استقلال وطنهم أموات فى هذا الوطن، حتى وإن كانوا يعيشون ويأكلون ويشربون! . . لأن فقد الاستقلال يساوى ويعنى فقد المعنى الحقيقى للحياة! . .

يقرر القرآن الكريم ذلك . . ويضرب عليه المثل من قصص الأولين وتاريخ الغابرين:

---

(١) (الجامع لأحكام القرآن) ج ١٨ ص ٥٩ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ [البقرة: ٢٤٣ - ٢٤٤]

فهم لم ينهزموا من قلة في العدد، فهم ألوف، وإنما انهزموا من خور وحذر من الموت وضعف أصاب شجاعتهم ووطنيتهم، فخرجوا من ديارهم، فارين مهاجرين، أو معزولين عن حكمها والتحكم في أمرها والاستمتاع بخيراتها، رغم بقاء أجسادهم فيها. فكان ذلك بمثابة أمر تكويني من الله بموتهم!.. فلما تابوا إلى رشدهم، وتعهدوا عاطفتهم الوطنية بالنماء، فاحتموا بها وتسلموا بأسلحتها، واستردوا وطنهم واستعادوا استقلاله، كانت لهم الحياة! (ثم أحياهم)؟!

بل لقد زكت الآية الكريمة ذلك الاستقلال الوطني، الذي هو الحياة، بوصفها إياه بأنه من «فضل» الله على الناس، وتحدثت الآية التالية لها عن أن صون الاستقلال، والحفاظ على هذه الحياة رهن بالقتال: (وقاتلوا)!. ثم جعلت هذا القتال، الذي يستهدف استقلال الوطن وعودة الروح والحياة الوطنية.. جعلته قتالاً في سبيل الله!..

تلك هي الذروة التي بلغها الوطن والوطنية في آيات القرآن الكريم، وتلك هي القدسية التي أضفها الإسلام على القتال السياسي، لا الديني، في سبيل الوطن والوطنية واستقلال الأوطان.. لقد جعل الحياة في وجودها، كما جعل في فقدانها الموت والعدم والفناء!

وحتى يطمئن القلب، وتزداد القناعة، ويرسخ اليقين بهذه المعانى التى أشرنا إليها، نقرأ كلمات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، تلك التى كتبها عندما وقف أمام هذه الآيات من كتاب الله: «تلك سنة الله - تعالى - فى الأم التى تحب فلا تدفع العادين عليها. . وحياة الأم وموتها، فى عرف الناس جميعهم، معروف، فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذابت جامعتها، فكل من بقوا من أفرادها خاضعون للغالين ضائعون فيهم، مدغمين فى غمارهم، لا وجود لهم فى أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو: عودة الاستقلال إليهم. . إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة الملية - (الوطنية) - المحفوظة من عدوان المعتدين. . والقتال فى سبيل الله. . أعم من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل أيضاً الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغى إزلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتننا عن ديننا. . فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد فى سبيل الله. . ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين! . .»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٤ ص ٦٩٥ - ٦٩٧.

هكذا تناول الإسلام قضية الحرب والقتال والجهاد القتالي . .

\* فهو عندما أنكر «الكهانة والكهنوت» أنكر وجود «السلطة الدينية» في سياسة المجتمعات الإنسانية . . ومن ثم كانت الحرب فيه «سياسة» . . وليست «ديناً» . . لأنها إحدى وسائل العمل السياسي فهي امتداد للسياسة، لكن بأدوات العنف في الصراع! . .

\* وهو عندما قرر أن (لا إكراه في الدين) نفى ورفض أن يكون القتال سبيلاً لتحصيل «الإيمان»، الذي هو يقين باطنى وتصديق قلبى، لا يتحصل إلا بالإقناع ولا يتحقق إلا بالافتناع . . ومن ثم نفى ورفض أن يكون هناك قتال دينى لنشر الدين وفرض الإيمان! . .

\* وهو عندما جعل «للقضية الوطنية» - العيش في الوطن الحر أحراراً - مكاناً عالياً في فكره، وفي قرآنه الكريم، حتى كادت أن تكون محور القتال المشروع فيه، إنما كان يرفع من قدر «الوطنية» ويعلى من مكان «الوطن»، ومن ثم يقدس القتال الذي شرعه ودعا إليه سياجاً يصون به المسلمون أوطانهم من الأعداء والطامعين.

وناهيك بفكر يجعل القتال في سبيل الوطن جهاداً في سبيل الله؟! .

\*\*\*